بحث حول معنى (النصر)

بقلم: زكريا بركات

MAHASEN ALKALAM

بسـم الله الرحمن الرحيم

❖ ما هو معنى النصر؟

قال الله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ **[محمد: 7]**.

هناك فهم ساذج للنصر يتمثَّل مفهوم النصر في الغلبة العسكرية في ساحة القتال، والتي تعني ـ فيما تعني ـ : القتل والسبي والغنائم..

ونحن لا ننفي هذا المعنى للنصر، ولكن نعتقد أنَّ حصر معنى النصر في نطاق هذا المعنى هو تحديد بغير موجب..

هذا التحديد لمعنى النصر سيضطرنا إلى عدم النظر إلى قضية (**إن تنصروا الله ينصركم**) كقانون ثابت وسنَّة إلهية في نظام الكون، لأننا سنضطر ـ في ضوء هذا المعنى الضيق للنصر ـ إلى اعتبار الإمام الحسين عليه السلام غير منتصر، وبالتالي سنقول ـ كما نَسب إلى بعض الأعلام ـ إن القانون له استثناءات وليس على عمومه..

وهذه النظرة إلى قضية (إن تنصروا الله ينصركم) تتنافى مع المعطيات التي تفيد أنه قانون عام وسنَّة إلهية راسخة في نظام الكون، كما إنها نظرة تفرِغ القضية من فاعليتها في إشعال الحماسة الجهادية، وبالتالي يفقد الإنسان المجاهد ـ بغض النظر عن نوعية جهاده ـ طاقة الحركة التي يرجى بثُّها في روح الإنسان بفعل القضية القرآنية.

إذاً ما هو معنى النصر بالمفهوم الواسع الذي يحفظ للقضية القرآنية عمومها الراسخ وصفة السنة الإلهية، والذي يجعلنا نفهم نصر الإمام الحسين عليه السلام وغيره من الأئمة والمستضعفي في التاريخ البشري؟

المعنى الصحيح والواسع للنصر هو تحقيق الهدف الذي تحرك من أجله المجاهد.

وتارة ننظر إلى النصر على المستوى الشخصي، فالقتل في سبيل الله هو نصر في حدّ ذاته على الصعيد الشخصي للشهيد.. ولذلك لا يصح ـ بحال ـ التعبير عن الشهيد بأنه هزم.. بل الشهيد ـ بسقوطه قتيلاً في سبيل الله ـ قد بلغ غاية مناه على الصعيد الشخصي.

وتارة أخرى ننظر إلى النصر على صعيد الأهداف الرسالية لا الشخصية للمجاهد، كهدف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما في الرواية المشهورة عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: "**خرجتَ لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر**...".

والإصلاح عنوان أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ثم إننا يلزم أن نحذف (قيد الفورية) من حساب النصر، أي لا معنى لاشتراط تحقق الأهداف الرسالية في إطار زمني ضيق.. بل يمكن أن يتحقق النصر على المدى البعيد وبشكل تدريجي حتى لو استشهد المجاهد..

وهناك عدة شواهد على صحة هذه التوسعة لعنى النصر، نذكر منها ما يلي:

الشاهد الأول: في الأمالي للشيخ الطوسي (ص 677) بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: لما قدم عليٌّ بن الحسين (عليهما السلام)، وقد قتل الحسين بن علي (صلوات الله عليهما)، استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله، وقال: يا علي بن الحسين؛ من غلب؟ وهو مغطى رأسه، وهو في المحمل. قال: فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: "إذا أردت أن تعلم من غلب، ودخل وقت الصلاة، فأذّن ثم أقم". انتهى.

والمعنى: إنك إن أذنت وأقمت، عرفت أن الحسين هو الغالب؛ لأنه خرج ليحفظ صوت شعائر الله، وكان هدف يزيد وبني أميه أن يمحوا هذا الصوت..

وهذا معناه أن الغلبة والنصر يلزم أن يعرفا على أساس تحقيق الأهداف، فالذي حقق هدفه فهو المنتصر، ولو كان هو المقتول أو المسبي أو المنهوب.

الشاهد الثاني: المروي عن زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام أنها قالت مخاطبة الطاغية يزيد (لع): "فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فو الله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلّا فند، وأيامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد، يوم يناد المناد ألا لعنة الله على الظالمين". فكلام زينب ـ سلام الله عليها ـ يفسر لنا معنى من النصر قد لا يخطر ببال كثير من الدارسين لحادثة الطف.

فالنصر ـ في ضوء هذه الرواية الشريفة ـ يعني عدم إتاحة المجال ليزيد وأتباعه لأن يطفئوا نور الله بمحو ذكر أهل البيت عليهم السلام.

وحين ننظر إلى الواقع من حولنا، نجد يزيد وكل من أسس له وكل من تأسس به، قد انتهوا ومحوا من التاريخ تماماً.. بينما ذكر أهل البيت (ع) باقٍ ومتنامٍ على مرِّ الأيام.. وزيارة الأربعين المليونية أوضح شاهد على ذلك.

الشاهد الثالث: المروي في المستدرك للحاكم ج3 ص195، عن ابن عباس، قال: أوحى الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم: "إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً". قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي في التلخيص.

ومعنى ذلك أن الله انتقم لقتل الإمام الحسين عليه السلام بقتل 140 ألفاً من أعدائه والمنحرفين عنه. وهذا حتى بالمعايير العادية في القتال نصر عظيم وفناء لجيش بكامله.

الشاهد الرابع: المروي في من لا يحضره الفقيه عن رسول الله (ص) أنه قال: حقَّ على الله عز وجل ألا يبغي شيء على شيء إلا أذله الله، ولو أنَّ جبلاً بغى على جبل لهدَّ الله الباغي منهما.

فهذه الرواية تؤكد على أن قاعدة النصر للمظلوم تعتبر قانوناً عاماً وسنة إلهية، ولسانها وأسلوب تعبيرها يأبى عن التخصيص ويتنافى مع الاستثناءات.

ومن الشواهد التاريخية التي ينبغي أن نسجلها ما شهدناه من الظلم الفظيع والقتل الذريع الذي تعرض له السيد حسين بدر الدين الحوثي في صعدة، وما لقيه أتباعه من الاضطهاد والاستضعاف لسنوات.. ولكن الأمور آلت إلى فناء أعدائهم وفرار من تبقى من جبابرتهم، واستولى أبناء الحركة على البلاد بفضل الله وعجيب لطفه.. مما يشبه الأعاجيب ولا يكاد يصدَّق لولا أننا شهدنا ولمسناه بأنفسنا.

وكلما فتشنا في التاريخ القديم والمعاصر، سنجد الشواهد كثيرة على هذا المعنى الواسع والواضح من النصر.. والذي يستدعي قراءة متأنية للأحداث والمتغيرات على مدى زمني ممتد تتحقق فيه أهداف من ينصرون الله في حركتهم ويقدمون التضحيات في سبيل الله.

والانتباه إلى هذا المعنى من النصر واستحضاره نصب أعيننا، يجعلنا مؤمنين بنصر الله تعالى، ومتيقنين من أن الموت لا يعتبر هزيمة، بل هو في حد ذاته أوَّل تجليات النصر للإنسان المجاهد، وتستمر بعده آيات النصر للمستضعفين في سبيل الله، وتتجلى في أبهى صورها المذهلة، والتي ربما لم يفكر فيها الإنسان ولم يتوقعها؛ لأنها من لطف الله الخفي، وكرمه العميم، وعطائه العظيم.

وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

بل إن هذا المعنى من النصر يقلب نصر الظالم هزيمة، فالظالم ـ وفق حساباته الضيقة ـ يعتبر القتل والسبي والنهب نصراً، ولكن النصر ـ كما فهمناه بالمعنى الواسع، هو حليف المظلوم والمسبي والمنهوب مادام قد قام وجاهد في سبيل الله، وهذا معناه أن النصر ـ بالمعنى المعهود والضيق ـ يتحول إلى هزيمة ـ في الحقيقة ـ بفعل تحقق النصر الحقيقي بالمعنى الواسع لمصلحة المظلوم الذي انتصر لله وقام لله.

والحمد لله رب العالمين.

MAHASEN ALKALAM